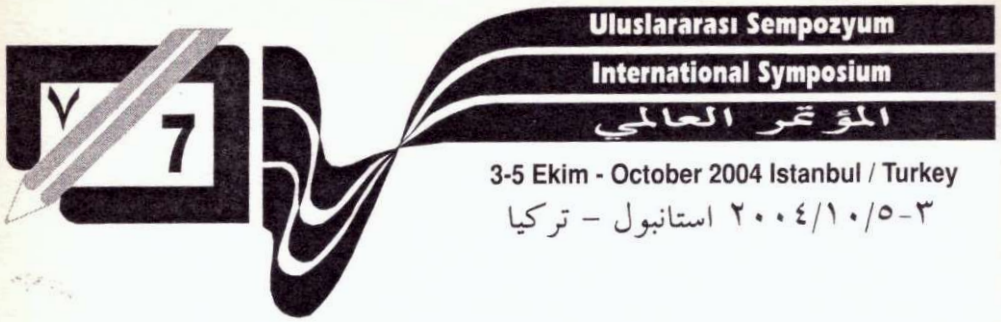

المؤتـــمر العالمي الســـابع
لبديع الزمان سعيد النورسي

ممارسة حياة ايمانية فاعلة

في سلام ووئام في عالم متعدد الثقافات
من خلال رسائل النور

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م
Ekim 2004
الترقيم الدولى
ISBN: 975-269-043-2
شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع

السلام والعدالة الاجتماعية في الإسلام من منظور النورسي

الدكتور عبد السلام أقلمون
جامعة ابن زهر
أكادير/المغرب

"لذا فأنا بكل ما أوتيت من قوة بجانب العدالة التامة، وضد الظلم والسيطرة والتحكم والاستبداد"

بديع الزمان سعيد النورسي

1- مقدمة:

إن الإسلام دين اشتق معناه من السلام، وهذا السلام بدوره شعاع من نور الله كما يرى النورسي، ولابد لحياة ترغب في أن تستهدي بنور الله وتريد إسقاط أشعة السلام على محيطها العام أن تجعل ذلك النور المنبثق من اسم الله مناسبا لدلالته ومعناه. ومن معانيه أن يجد الإنسان توازنا في حياته الفردية عبر اعتدال الميزان الاجتماعي. وإلا فإن كل المطالب الأخلاقية المغرقة في الفردانية والوعظ الشخصاني تنسى أن الإسلام دين اجتماعي كما هو دين فردي وخلاص للناس في منظومة قيمهم التشاركية كما هو تخليص للفرد.

لا يمكن أن يستقر السلام والوئام الاجتماعيين على أساس فردي مع استهتار اجتماعي، يستن بالحيف والهضم ويدعو إلى تزكية الأفراد خارج أنساقهم الاجتماعية.

إن بديع الزمان النورسي يقدم تصورات علمية وإيمانية تصلح لكي تكون أرضية

جديدة لصياغة منظومة قيمية إسلامية تجنح إلى السلم عبر تحرير الذات من شروط الاستعباد الذاتي والموضوعي، وتحرير المجتمع من سادية الاستعلاء والاستغلال. وهي مداخل لم يتمكن الفقه الإسلامي الجزئي من تجليتها وتسويقها عالميا بحكم انشغاله الكبير والطويل بجزء من الدين، وانشغاله عن أجزاء أخرى اكتشفتها المدنية الحديثة فيما يسميه النورسي أوربا المؤمنة. وهذا المنظور في الاعتراف بالمشترك الإنساني فرصة حقيقية – الآن–لتجسير العلاقة بين العالمين الإسلامي والغربي.

إن القدرة على الربط بين قيم الإسلام السامية المستوحاة من دستور خالد قائم على ميزان العدل ومقيما لميزان العدل ، وبين حقائق تستنتجها البشرية في كدحها العقلي الطويل والمنصف أحيانا نابعة عند النورسي من تشبعه الكبير بقيم القرآن الكريم، ومعايشته الاستثنائية لمعانيه، بما أهله –بما يشبه السليقة– على أن يترجم تلك المعاني وأن يبسط تلك الدلالات، بما يترجم المعنى الأصيل لصفة "الكريم" الملازمة لقرآن رب العالمين. فهو كريم من حيث سخاؤه اللامتناهي في تزويد العقول–بمختلف درجاتها –بما تحتاجه من مؤهلات ودروس ودلائل ...لمعرفة العالم وإحسان قراءته.

ومن العناصر التي تجعل كتابات النورسي تحضى بحرارة "الراهنية"، بما هي تجدد مستمر ومعانقة دائمة لمستجدات الظرف البشري، التصاقه الدائم بمرجعية قرآنية، واستمداده من معين خلودها الأبدي الهادي.

وبتحكيم هذا الأصل الكبير، نستطيع أن نحفر في رسائل النور، لنبعث بواسطتها الوعي ببعض القضايا الراهنة. وفي هذا المستوى بالذات يكون سعيد النورسي بحكم نشأته في فضاء مصاقب للحضارة الغربية، ومعايشته لتجلياتها الثقافية ...أقدر على تفكيك رموز هذه الحضارة المتمادية في توسعها المادي لتغطية أركان العالم كله باسمها/ العولمة. أي الرغبة في طي الثقافات كلها تحت جناح الثقافة الغربية، بما هي في زعمهم أرقى ما انتهى إليه العقل البشري في رحلة تطوره المشهود. لهذا توقف كثيرا–كما سنرى–ليوازن بين رؤية القرآن الكريم ورؤية أوربا إلى الحياة. وهو أيضا أقدر على مجابهة هذه الأفكار، لكونه يحمل منظورا حضاريا عالميا بديلا ، يستطيع أن يستوعب مختلف النوعيات الثقافية، في خطابه الآدمي المتعالي عن كل تمييز أو استكبار. إنها إذا مجابهة بين

عولمة قيمية أخلاقية تتخذ من المسجد فضاء أنموذجا ترغب في تعميم سماته على العالم/باسم الله، وبين عولمة تتبنى قيم السوق الربحية المادية وتطمح إلى توسيع المدى الكبير لمكتسباتها لصالح الإنسان الغربي/باسم القوة .

إنها موازنة بين حضارة تدعو إلى نفسها محتجة بصنائعها وإبداعاتها، معتزة بما في يمينها من مكتسبات مادية تحاول إرغام البشرية على تشربها، وبين حضارة تدعو إلى ربها معترفة بأنعمه التي يظهرها على يد من يشاء من عباده، محاولة أن تقنع البشرية كلها بالاستجابة لداعي الكسب الذي يؤجر عليه...لذلك ينشأ تدافع حضاري قوي تارة وخفي تارة أخرى. لكن النورسي في تأملاته البديعة وتفرغه لتلك العلاقات الناجمة عن مفهومين وتصورين وحركتين يحاول أن يجترح مسلكا خاصا منسجما مع الرؤية الإيمانية، تلك التي تتعالى على الظرفيات والعصبيات والجغرافيات والأنانيات...تلك التي تسعى وتبذل وتنفع ...وهذه الرؤيا هي قوام تنشئة حضارية بديلة يمكن أن تقتاد البشرية ، إلى العدالة والسلام أي إلى الآية الكريمة:

"وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان "المائدة 3.

2 مفاهيم ودلالات :

من خصائص النورسي المنهجية، محاولة بناء كليات عامة تطرد بها جزئيات كثيرة. لهذا فهو لا يلتفت للحالات الخاصة إلا من باب ضرب المثل أو تأكيد مقاصده الكلية. وسبب ذلك هو أن "الخطاب النوري" متشرب في جوهره للآليات القرآنية التي لا تحتفل في النهاية إلا بكل ما هو إنساني وبشري وعام. وهذا نفسه مظهر من مظاهر العدالة في الخطاب الإسلامي. فالإسلام لا يعترف بالعنصرية والعصبية، ويدعو البشرية إلى روابط محايدة :

" إن الأسس المتبعة في القومية والعنصرية أسس ظالمة لا تتبع العدالة ولا توافق الحق، إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدالة، لأن الحاكم العنصري يفضل من هم بنو جنسه على غيرهم، فأنّى له أن يبلغ العدالة! بينما (الإسلام يجبّ ما قبله) [1] من عصبية جاهلية، لا فرق بين عبد حبشي وسيد قرشي إذا أسلما [2] فلا يمكن إقامة رابطة

القومية بدلاً من رابطة الدين في ضوء هذا الأمر الجازم. إذ لا تكون هناك عدالة قطٍ وإنما تهدر الحقوق ويضيع الإنصاف"[1]

إن رسائل النور تدفع قارئها تلقائيا إلى أن يتنـــزه عن العصبيات والقبليات والمحليات، وتسهل عليه أن يندمج في كونية خطابية تعده ليصبح إنسانا ليس فقط كونيا ولكن ليصبح "إنسانا ميتا دنيوي" أي متعقل بطريقة أخروية. بحيث تكون حساباته النهائية كلها مشروطة بمدى الكسب الأخروي. ولأنه معني بهذا الكسب الأخروي فليس أمام مسلم ينشئه الخطاب القرآني إلا أن يكون عادلا، وهو ملزم بذلك شرعا كما يلزم بفرائض الدين، وليس أمامه إلا أن ينشد السلام لأنه طالب هداية ورحمة للعالمين وهم كلهم عباد رب رحيم.

قد يعتقد البعض أن هذا الخطاب هو نوع من الأفلاطونية المتأخرة، أو هو نوع من الطوباوية البديلة ...ولكن النورسي لا يبالي بالفرقاء والخصوم ...ولا يخاطب أحدا بما يهوى. بل يظل مصرا على أفكاره الكلية مستهديا بالقرآن الكريم لا يلفته ولا يصرفه عنها شيء.

والنتيجة المتحصلة من المنظور النوري هي إقامة "ميزان فكري" منسجم مع ميزان الكون في ذاته وغايته :

-في ذاته :لأنه فكر مؤسس على طبائع الأشياء، ومنسجم مع نواميس الكون ومقتضيات الطبيعة كما أنشأها خالقها. أي العدل بما هو تجل لأنوار اسم الله "العدل". وبما يؤكد أن الحياة كلها في اختبار سيعرض نتائجه ميزان الآخرة النهائي .

-في غايته: لأنه فكر تتولد عنه أحكام ومقتضيات يريدها أن تكون منسجمة مع المقتضى الشرعي الكبير وهو إقامة ميزان العدل، وبسط نتائجه على كل الكائنات. ومن نتائجه البارزة :"السلام" وهذه غنيمة، ما فتئ التاريخ يؤكد حتميتها وحاجة البشرية إليها.

وبناء على المقدمة السابقة يمكننا أن نصوغ النتيجة الآتية:

"كلما أحكم بناء ميزان العدل ، كلما استتبت دعائم السلام والعكس صحيح"

لكن سؤالا حيويا يفرض نفسه على كل باحث جاد ماهي الجهة المخولة بإقامة ذلك الميزان ونصبه أمام العالمين.

يجد قارئ رسائل النور الجواب على هذا السؤال من البداهات المبسوطة أمامه في أدلة علمية مصدرها آيات القرآن وآيات الكون ونتائج العلوم الحديثة. والجواب يصير بداهة ليس لأن النورسي يجنح إلى الاستعجال والسطحية –وقد يوهم تحليلنا وهو لا يحيط بكل حقائق رسائل النور بذلك-بل لأنه يؤمن بالتبسيط والأجرأة. فالفكرة عنده لا تكتسب قيمتها من التغوير اللفظي والتقعير المعنوي، بل تستمد قوتها من سماحة المعنى ولطف التدليل عليه.

لهذا سينتهي القارئ أن الجهة المخولة بنصب ذلك الميزان ورعاية تنفيذ مقتضياته ومحاكمة الناس على مدى الالتزام به هي الله وحد. فهو من جهة "رب العالمين" وهو من جهة أخرى مالك يوم الدين".

فلأنه رب العالمين فالناس كلهم عبيده وليس له بينهم قريب بغير مستحقات التقرب، وليس بينهم ولد ولا عشيرة ولا عصبية ولا أرض أقرب...بل كل الناس محكومون بربوبيته بنفس القدر والقسط.

ولأنه مالك يوم الدين فهو الحكم الفصل بعد أن يرجع إليه كل شيء وينتهي إليه كل أمر وحكم. فيصدر الأمر النهائي والحكم الفصل.

وهذه كلها غايات تحمل البشرية على لزوم القسطاس ، لأنهم مسؤولون عن أحكامهم وأوامرهم ومختلف أعمالهم: "وقفوهموا إنهم مسؤولون " الصافات 25

أما كل جهة أخرى غير الله فهي متحيزة إما لزمان أو مكان أو أشخاص أو مصالح...لهذا لا بد أن يكون واضع الموازين القسط مبرأ من ذلك كله.

هذه النظرة تحتم على النورسي أن يعيد إنتاج الفكرة الإسلامية بما هي مصلحة الناس جميعا، وخير البرية بدون استثناء. ولقد حاول علماء أصول الفقه إظهار القواعد العامة المبينة لأصول الدين الكبرى ، ولكنها في كثير منها محفوفة بالتعقيد .

بينما جاءت الرؤيا المقاصدية النورية منسجمة مع مطالب البيان، الذي أحد معانيه التبسيط والإفهام في غير ما ضعف أو إسفاف أو إخلال.

"لقد ثبت بالبحث والتحري الدقيق والاستقراء والتجارب العديدة للعلوم أن:الخير والحسن والجمال والإتقان والكمال هو السائد المطلق في نظام الكون وهو المقصود لذاته، أي هو المقاصد الحقيقية للصانع الجليل..."[2]

والجمال المعنوي المنشود للحياة الاجتماعية، ليس شيئا آخر سوى العدالة تسود بين الناس والسلام يعم البلدان والأقطار...وهما الوجه الحضاري المكمل لجمال الكون:

"وقد ثبت ببراهين دامغة في أغلب أجزاء (رسائل النور): إن فعل التنظيم والنظام الذي هو تجلٍ من تجليات اسم الحَكَم والحكيم، وإن فعل الوزن والميزان الذي هو تجلٍّ من تجليات اسم العدل والعادل، وإن فعل التزيين والإحسان الذي هو تجلٍّ من تجليات اسم الجميل والكريم، وإن فعل التربية والإنعام الذي هو تجلٍّ من تجليات اسم الرب الرحيم. . كل فعل من هذه الأفعال، هو فعلٌ واحد، وحقيقة واحدة، تشاهَد بوضوح"[3]

ولكي يبرز هذه المقاصد جاءت الرسائل حافلة بالشواهد العلمية، بشكل يكاد يشكل قطيعة مع جزء كبير من التراث الإسلامي الذي استغرقته الجزئيات والشواهد اللفظية، حتى كاد يضيع عن الحقيقة المركزية وهي أن القرآن الكريم كتاب هداية وليس مجرد خزان لشواهد النحو والبلاغة.

هذا المنعطف الجديد الذي هديت إليه رسائل النور سيشكل حتما ثورة مفهومية كبرى تفتح القرآن الكريم على العصر، وتخرج مفهوم الآية من البعد الرقمي واللفظي إلى البعد الحقيقي المتمثل في الدليل والبرهان والشاهد والحجة ...وكل ما هو بسبيل الإفضاء إلى إثبات دعاوى القرآن وعطف العقل البشري على حقائقه.

فإحدى المعجزات الكبرى للرسالة الأخيرة هو نصبها لهذه العدالة الاجتماعية التي لا يزيد تاريخ البشرية إلا بحثا عنها. وما هذا التيه في ظلمات الحروب والدمار سوى دليل آخر على نشدان نور السلام والوئام . وهو أحد التشريعات البارزة في القرآن الكريم:

"إفناء الأبرياء من أطفال وعوائل وشيوخ ومرضى بالقنابل المدمرة بحجة وجود جندي أو اثنين من جنود الأعداء فيما بينهم. . واتفاق أعتى المستبدين من البرجوازيين مع الفوضويين والإرهابيين الذين هم المتطرفون من الاشتراكيين والشيوعيين وإهدار دماء ألوف بل ملايين من الأبرياء. . والاستمرار في هذه الحرب الضارة للإنسانية جمعاء. . وردّ الصلح والسلام. . لذا فإن الإسلام والقرآن الكريم بريئان بلا شك من مثل هذه الحروب المدمرة التي لا تنسجم مع أي قانون كان من قوانين العدالة ولا مع الإنسانية ولا مع أي دستور كان من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق"[4]

لكن الفائدة الأهم التي نحصلها من هذا التحليل هو الإضاءة الكاشفة لحقائق القرآن التي بات العقل البشري يكتشف أدلتها الأخرى المبسوطة في سطور الكون. وهو أمر كان النورسي واعيا بنتائجه الدعوية وحصيلته العقدية. فكلما تقدم العقل وزاد وعيا بحقائق الكون كلما كان أكثر أهلية لتقبل دعوة القرآن الكريم ، وهذه حقيقة يؤكدها في أكثر من مكان من رسائله، بل على شرطها نهض قسط كبير من مشروعه النوري.

ولعل مائدة الحقائق العلمية مثل مائدة الغداء العالمي كلاهما موضوع حوار عميق قد يفضي إلى السلم والسلام العالميين ، إذا حكم في النظر إليهما ميزان العدل؛ أو يفضيان إلى الحرب والدمار إذا حكم فيهما إجحاف الظلم والهضم.

3 التكامل الثلاثي وبناء الميزان :

إذا حاولنا أن نستخرج عوامل إضافية دعمت المشروع النوري، وحولته إلى خطاب تجديدي وهو يحاول أن يبني توازن القيم لفائدة الإنسان كل الإنسان ؛ سنجده في مداخله المعرفية الكثيرة ومواقفه الاستنتاجية والاستدلالية مفعما بحيوية إجرائية تنفض عنه كل أشكال الخمول المعرفي التي لازمت الفكر الإسلامي في عصور التقوقع والتراجع الحضاريين.

إن الخطاب النوري لا يكتفي بتمديد معاني القرآن الكريم وملازمة مدلولاتها بشكل أمين وفاعل معا، بل يسد ثغرة كبيرة نشأ عليها البحث الديني وهي الغفلة عن آليات قرآنية كثيرة يمكن لتوظيفها أن يكون مصدر تسديد وتأييد حضاريين ، يمكن تطبيقه على مفردات الحضارة الإسلامية . وسوف نحاول أن نقف على آليتين بارزتين في هذا

السياق لنرى كيف نجح الخطاب النوري في توظيفهما . وهما آليتين قرآنيتين تفتقدهما اليوم المجتمعات الإسلامية وتحكمهما المجتمعات المتقدمة، وهما أحد أسرار تقدمها. مما يجعل الحقائق القرآنية كما يردد النورسي كثيرا أستاذا لكل القيم والمثل الإيجابية.

لنكتفي بآليتين يمكن أن ينشأ بهما تعزيز قدرات كل مجتمع على حدة ، كما تنشأ بهما أواصر التبادل الحضاري البناء بين المجتمعات:

أ–التفعيل والارتقاء:

قاعدة أولى :إن كل فعل يعتبر من منظور شرعي فعلا معطلا إذا بقي محصورا في الأمنيات والأحلام التي لا يسندها عمل محكم وتدبير حصيف.

"وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون" الجاثية 23

"ذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي كانوا يوعدون" الزخرف 83

قاعدة ثانية : إن كل عمل مهما أنفق فيه من جهد لا يعتد به شرعا إذا لم يقصد به خير:

"فقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا"

قاعدة ثالثة :إن العمل المأجور عليه والذي تظهر نتائجه الباهرة هو العمل الخير المتقن

"إنا لا نضيع أجر من **أحسن** عملا " الأعراف 170

لقد تنبه النورسي إلى غفلة المسلمين عن حقائق دينهم وهي نواميس اجتماعية لا تختلف في شيء عن نواميس الطبيعة. لهذا حاول أن يرفع همة العقل المسلم ويوجهه إلى نتائج العمل والاجتهاد، مستشهدا بما يتحقق من نتائج تنموية وحضارية في بلاد الغرب كلما أحكمت أسباب العمل .

والخلاصة التي ينتهي إليها متأمل رسائل النور أن إحراز التوفيق يحتاج إلى اشتغال ثلاثي آني للعناصر الثلاثة الآتية :

أ–النية والعمل والإحسان

والنية في المنظور النوري ليست إحساسا مخبوءا ولا إرادة خامدة متوارية في الخلفيات المظلمة للفكر المستسلم ، بل هي إرادة عازمة وإصرار على الإقدام ينطوي على حب عميق للخير وللهادي إليه. وبذلك يمكننا أن نتحدث عن نية فاعلة عوض نية خاملة.

ثم العمل لا يكون تواكلا لا تسنده الخطة ولا يسبقه الإعداد، بل يكون برنامجا جاهزا مدروس الخطوات قابلا للتنفيد محكم الأهداف والغايات.

وأخيرا يكون الإحسان هو الارتقاء بذلك العمل إلى أعلى مراتب الإتقان، مراعيا التدبير المحكم والتحكم العلمي في مراحل الإنجاز، وهو ما يعرف اليوم بأنظمة الجودة. وهي أنظمة أقرها الإسلام وعرضتها كل سطور الكون كما يبين النورسي ولكن العقل المسلم في سباته الطوعي والقسري لم ينتبه إلى آياتها.

الاستراتيجية	=	النية
الجودة البرنامج	=	العمل الإحسان

ولاشك أننا في حاجة ماسة إلى إحياء هذه الآليات قصد إنجاز أدوارنا الحضارية بعد هذه الاستقالة الطويلة التي تركت الساحة فارغة لسياقات بشرية مهما حازت من كمالات التقدم تظل قاصرة عن إقامة ميزان مطلوب ينصف به الناس جميعا.

وخيرية الأمة الإسلامية المشروطة بدعوتها إلى الخير وإشاعة المنافع –وأبرز تجليات الخير إقامة ميزان أممي للعدل بين الجميع بما يحفظ الكرامة الإنسانية من الهدر والامتهان. وإشاعة الأخوة بدل الحروب –لا يمكن أن تتم مع الضعف والعجز والهوان. بل مستحيلة بدون تمثل تلك القيم والاستفادة منها أولا قبل عرضها على الضمير العالمي. والحقيقة أن غياب تحققات فعلية للمقصد الشرعي الاجتماعي هو نفسه عائق، ما فتئ النورسي يبين تأثيره السلبي على انتشار قيم الإسلام بين العالمين.

ب–الاحتواء والتجاوز:

إن الحيوية الفائقة للخطاب النوري نابعة من تفعيله لآلية قرآنية مهمة تتمثل في الاحتواء والتجاوز. فالقرآن الكريم يدل على أنه احتوى كتبا سماوية سابقة، ثم بين أنه تجاوزها وهيمن عليها بعد أن نفى عنها أشكال الزيف والتحريف ثم قدمها للبشرية في حلة الرسالة الخاتمة المحفوظة.

يؤكد النورسي أن المسلم ليس في صدام سرمدي مع كل الخطابات الغيرية كيفما كانت طبيعتها، بل إن المسلم خصيم للشر وخطاباته حليف للخير وخطاباته. وبذلك يكون الخطاب النوري حاضا على قدر من المرونة تسمح باستيعاب الحكمة حيثما وجدت ، وكيفما كان مصدرها؛ ونفي الضلال كيفما كان مصدره وحيثما وجد.

"الحضارة الإنسانية التي يوجد فيها الخير والشر والطيب والخبيث والطاهر والقذر معاً. فالعاقل هو مَن يعمل على قاعدة: (خذ ما صفا. . دع ما كدر) فيسير مع سلامة القلب واطمئنان الوجدان" [5]

وبذلك تتعزز قدرات الحكمة ويزكو رصيد الفكر الإسلامي منها في ما يسميه النورسي:"الشورى التاريخية". فالتاريخ نفسه بما يراكم من أفكار تنتفع بها الأجيال المختلفة ، إنما يخلق هذه الشورى الأفقية الممتدة عبر الزمان . تتواصل العقول وتتلاقح الفهوم بين المجتمعات والأقطار، وبين العلماء والمفكرين من مختلف البقاع. فلو استحدث الناس قياسا على هذه الشورى التعاقبية، نوعا من الشورى التزامنية لغنم الزمن المتكتل في "آن" العالمين، نفس ما يغنمه الزمن الممتد في تاريخ العالمين.

وهذا الخطاب الذي يؤمن بحاجته إلى الآخر لا يمكن أن تنشأ عنه أفكار عدوانية تبحث عن التضاد المطلق. بل لا بد أن يكون خطابا يبحث عن تجسير العلاقات ومد الصلات بين الأفكار التي هي تجليات لعقول الأمم بما ينشأ عنه تعارف كوني رحيم بين أقطار العالم.

وعلى هذا يمكن أن نولد القاعدة الآتية:

كلما كان الفكر مرنا قادرا على احتواء إيجابيات الآخر، كلما تأهل تلقائيا لتجاوز ذلك الفكر والهيمنة عليه.

ملحوظة:المقصود هنا بكلمة الهيمنة نفس معنى الهيمنة القرآنية-وليس الهيمنة العدوانية- أي استيعاب حسنات جهة معينة وإضافة حسنات أخرى ليست في تلك الجهة، وضم الجميع بما يرفع من قيمة الجهة المستوعبة ويجعلها أعلى وأكمل . انسجاما مع تصديق القرآن الكريم بالكتب السابقة وهيمنته عليها.

3 العدالة بين جاذبيتين :

لقد كان النورسي واعيا وهو يبني خطابه النقدي لأوربا على أساس الإنصاف وحسن التمييز. انسجاما مع قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قول على ألا تعدلوا إعدلو هو أقرب للتقوى). هذا العدل في إقامة النظر النقدي ليس مفيدا حسب لعدم التجني على الآخر مهما بلغت درجة خصومته ومغايرته للذات، ولكن لأن الذات نفسها في حاجة لاستبصار منهجي لا يعمى على الحق. خصوصا والخطاب القرآني قائم على حسن الاعتبار والتدبر. وهذان لا يقومان إلا مع الإنصاف. فأي درس سيستخلصه متجن حانق.

والحسنات إنتاج عقلي، والعقل نعمة واهبه. وحري بالمنصفين أن يجمعوا حسنات العقول لتنمو بها مداركهم ويزدان بها منطقهم مهما كان مصدرها.

إن الشق الإيجابي في حضارة أوربا هو تتميم لسياق ديني هدت إليه النصرانية، وهي شريعة ربانية كانت قائمة على النصح والإرشاد قبل أن ينالها التحريف . وهذه البقايا الصالحة من دين سماوي ، وذلك التماس اللاحق مع الإسلام في بلاد الغرب، وذلك النهوض العقلي الجبار...هذه كلها صنعت أوربا الحضارة. وهذه هي التي يقول عنها النورسي:

" هي أوربا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدّت خدماتٍ لحياة الإنسان الاجتماعية، بما توصلت إليه من صناعاتٍ وعلومٍ تخدم العدل والإنصاف 6"

ولكن هذه الأوربا ليست هي كل إنتاج الغرب الحضاري، بل إن عوامل التحريف والضلال وشهوات الفكر المادي المنطلق سترسب إلى جانب هذه العلامة الحضارية المضيئة، ساحلا من الظلام المتربص لالتهام العالمين بعد أن يدمر أوربا نفسها. وهذه الأوربا الثانية هي موضوع السجال الذي يخوضه النورسي. لأنه بصدد بناء أسس فكرية بديلة تحاول استيعاب ما في أوربا من محاسن ودرأ ما فيها من مفاسد على نحو ما ينشده القرآن الكريم ويرشد إليه:

" فلا أخاطب – في هذه المحاورة – هذا القسم من أوربا. وإنما أخاطب أوربا الثانية تلك التي تعفّنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية"[7]

إن المادية المستفحلة في أوربا تعمل على طمس حسنات المجهود الأوربي الأول في تطوير الحياة ، وتجعل أبناءها –وأبناء الأوطان الأخرى وهي تحاول توسيع نموذجها– يعيشون شقاء نفسيا عبر عنه النورسي بكونه جحيما دنيويا يحمل في نفسه الدليل على عذاب أكبر.

لهذا سنجد النورسي في نهاية المطاف لا يرضى على المنجزات الحضارية الغربية ما دام كل همها الإعلاء من شأن المادة والحط من أقدار الإنسان:

"تُرى هل يُجدي أعظم علومكم، وأعلى صروح حضارتكم وأرقى مراتب نبوغكم وأنفذ خطط دهائكم شيئاً أمام هذا السقوط المخيف المريع للإنسان؟ وهل يستطيع الصمود حيال هذا اليأس المدمّر للروح البشرية التواقة الى السلوان؟ وهل يقدر ما تطلقون من " طبيعة " لكم، وما تسندون إليه الآثار الإلهية من " أسباب " عندكم، وما تنسبون إليه الإحسانات الربانية من " شريك " لديكم، وما تتباهون به من " كشوفاتكم " وما تعتزون به من " قومكم " ، وما تعبدون مـــن " معبودكم"[8]

إن الأمر قد يكون هينا لولا أن الغرب يحاول أن يبني ميزانا خاصا به يزن به أفعال الخلق كلهم ، ويحاكم إليه كل أنواع السلوك البشري. بل إنه يشيد مؤسسات تسهر على تدبير الشأن الدولي العام وفق هذا الميزان . ويزعم الغرب أن ميزانه كفيل بأن يؤسس قيم العدالة ويبني جسور السلام.

ولما كانت الوقائع هي حقائق الأقوال، وتصديق الأفعال فإن ما يشهده العالم من أكدار واضطرابات عبر تاريخه الحديث والتي فاقت في بشاعتها كل أشكال البدائية البشرية، وطفولتها المتوحشة ؛ تثبت –عكس أقوال الغرب–أن العالم بات أكثر من أي وقت آخر في حاجة إلى ميزان يقيم العدل ويبني عريش السلام للبشرية المسكينة. خصوصا وأن وسائل التدمير اليوم تفوق كل الأشكال السالفة ، والتي ليست سوى لعب أطفال بالمقارنة مع ما تدخره مخازن السلاح العالمية الراهنة.

"نعم، إن المدنية الدنية الظالمة قد عوقبت، بكفرانها بالنعمة الإلهية وعدم إيفائها الشكر لله، تجاه ما أنعم عليها سبحانه من الخوارق الحضارية، لصرفها تلك الخوارق الى الدمار حتى سلبت سعادة الحياة كلياً وأردت الناس الذين يُعدّون في ذروة الحضارة والمدنية إلى أدنى من دركات الوحوش الضالة، وأذاقتهم عذاب جهنم قبل الذهاب إليها"[9]

ومهما كان من أمر فإن السلام لا يمكن أن يقوم سوى على دعائم الحق. لهذا تحتاج أوربا/الغرب إلى بناء موقف واضح لتفعيل التثاقف الحضاري. وعليها أن تكف عن الميركانتيلية المتوحشة التي ترى في العالم فرصة لتنمية مدخراتها من المعادن النفيسة، والناس سوى الغربيين مجرد سواعد تستخدم لبناء مجد الحضارة البيضاء.

هذا المنظور يفتقد قيم الإنصاف، ويختل به ميزان يريده رب العالمين رحيما بكل العالمين. لهذا فالعالم اليوم في أمس الحاجة إلى ميزان كلي تستقيم به شؤون العالم الاجتماعي كما تستقيم شؤون العالم الكوني.

بينما نلاحظ قدرا هائلا من الإنصاف والموضوعية تنعش الفكر النوري ، وتبين عن مداخل حقيقية لإقامة السلام وإشاعة العدل؛ فالنورسي بهذا الشق من الحسنات في قلب أوربا يبنى جسرا متينا ستعبر عليه أشكال من الحوار والتواصل بين الفكرين الإسلامي والغربي، ويؤسس فرصة لاكتشاف أنوية إيجابية إسلامية قائمة في الفكر الغربي وأنوية إيجابية غربية مبثوثة في الفكر الشرقي. وبذلك يتحقق تواصل جزئي بين الحضارتين الإسلامية والغربية في نصف دائرة تطلب تتمتها. فالجانب المضيء المتحقق في بلاد الغرب في شكل حضارة مدنية ينسجم مع دعوة الإسلام في العمل والإتقان، أي حسن إعمار

الأرض . و لا يشترط النورسي على الأمة الإسلامية في استقائها من الحضارة الغربية غير حسن التنخيل والاختيار؛ لأن الخطر كله هو في الغفلة عن أوربا الإيجابية والنهل من أوربا السلبية:

" المقصود محاسن المدنية التي أسدتها إلى البشرية ، وليست سيئاتها وآثامها التي يلهث وراءها الحمقى ظناً منهم أن تلك السيئات حسنات حتى أوردونا الهلاك، ولقد تلقت البشرية صفعتين مريعتين وهما الحربان العالميتان من جراء ما طفحت به كفة سيئات المدنية على حسناتها وتغلبت آثامها على محاسنها حتى أبادتا تلك المدنية الآثمة فقاءت دماً لطخت به وجه الكرة الأرضية كله. نسأل الله أن تغلب بقوة الإسلام في المستقبل محاسن المدنية لتطهّر وجه الأرض من لوثاتها وتضمن السلام العام للبشرية قاطبة"[10]

إن العالم واقع اليوم بين جاذبيتين:واحدة غربية تخلب العالمين ببريقها الظاهري اللامع، بينما تكتب لهم الشقاء الدنيوي والأخروي؛ والثانية جاذبية إسلامية تبحث عن عولمة القيم والمبادئ النبيلة التي تساوي بين أصناف البشر، وترحم جميع الكائنات.

فالإسلام قادر على إعادة إنتاج مدنية صافية من أكدار الحضارة الغربية التي بات شرها يستفحل ويهدد العالم بكل أنواع.

أ–جاذبية القهر :

"فهذه المدنية الخبيثة التي لم نرَ منها غير الضرر، وهي المرفوضة في نظر الشريعة، وقد طغت سيئاتُها على حسناتها، تحكم عليها مصلحة الإنسان بالنسخ، وتقضي عليها يقظة الإنسان وصحوته بالانقراض.

"فلو كنا منتصرين لكنا نتعهد حماية هذه المدنية السفيهة المتمردة الغدارة المتوحشة معنىً في أرجاء آسيا.

قال أحدهم من المجلس:

– لِمَ ترفض الشريعة هذه المدنية؟

قلت: لأنها تأسست على خمسة أسس سلبية:

فنقطة استنادها هي: القوة، وهذه شأنها: الاعتداء.

وهدفها وقصدها: المنفعة، وهذه شأنها: التزاحم.

ودستورها في الحياة: الجدال والصراع، وهذا شأنه: التنازع.

والرابطة التي تربط المجموعات البشرية هي: العنصرية والقومية السلبية التي تنمو على حساب الآخرين. وهذه شأنها: التصادم، كما نراه.

وخدمتها للبشرية خدمة فاتنة جذابة هي: تشجيع هوى المنفعة، وإثارة النفس الأمارة، وتطمين رغباتها وتسهيل مطاليبها. وهذا الهوى شأنه: إسقاط الإنسان من درجة الملائكية الى درك الحيوانية الكلبية. وبهذا تكون سبباً لمسخ الإنسان معنوياً.

فمعظم هؤلاء المدنيين لو انقلب باطنهم بظاهرهم لوجد الخيال تجاهه صور الذئاب والدببة والحيات والقردة والخنازير.

ولأجل هذا فقد دفعت هذه المدنية الحاضرة ثمانين بالمئة من البشرية الى أحضان الشقاء وأخرجت عشرة بالمئة منها إلى سعادة مموهة زائفة. وظلت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك، علماً أن السعادة تكون سعادة عندما تصبح عامة للكل أو للأكثرية؛ بيد ان سعادة هذه المدنية هي لأقل القليل من الناس"[11]

ب- جاذبية الرحمة :

"قلت: أما المدنية التي تأمرنا بها الشريعة الغراء وتتضمنها، فهي التي ستنكشف بانقشاع هذه المدنية الحاضرة، وتضع أسساً إيجابية بناءة مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة السلبية.

نعم! إن نقطة استنادها هي الحق بدلاً من القوة. والحق من شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المحبة والتجاذب.

وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشرية: الرابطة الدينية، والوطنية، والمهنية بدلاً من العنصرية. وهذه شأنها: الأخوة الخالصة، والسلام والوئام، والذود عن البلاد عند اعتداء الأجانب.

ودستورها في الحياة: التعاون بدل الصراع والجدال، والتعاون من شأنه التساند والاتحاد. وتضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكماً على الخدمات التي تقدم للبشر، وشأن الهدى: رفع الإنسانية إلى مراقي الكمالات، فهي إذ تحدد الهوى وتحدّ من النـــزعات النفسانية تُطمئن الروح وتشوقها إلى المعالي"[12]

4 أركان العدالة وثوابت السلام:

4-1 العدالة السياسية:

إن العالم الكوني تسوسه سببية داخلية تجعله منضبطا لأوامر عليا –كما يسميها النورسي–فلا يحيد عن مساراته ولا يخرج عن مداراته، استجابة لكلمة الله وأمره، بما يخدم صالح الإنسان إنارة وتسخينا وبرودة وإنضاج طعام...أي بما يجعل الاستضافة الكونية تجليا لقدرة الله وحكمته ورحمته.

أما شؤون العالم الإنساني فإن أمر سياستها وتدبيرها موكول إلى الإنسان وعلى ضوء إنجازاته سيحاسب. فلا بد لكل "مسؤول" إذا أقام ميزانه في الأرض أن يعلم أنه وميزانه سيعرضان على ميزان الله الذي لا يظلم نقيرا. وكثير من الناس غفلوا عن أن مسؤول صيغة اشتقت من اسم مفعول سيقع عليه السؤال. ومن الإحسان المرغب فيه شرعا أن يكون هذا السؤال في الدنيا قبل الآخرة، حتى لا يطغى المسؤولون فيصبحوا مجرد سائلين، وبذلك ينالهم عقاب الشرك الذي لا يغفره الله لأن صفة الذي لا يسأل تخص الله جل جلاله وحده وهي من خائص الألوهية المشمولة بالعدل المطلق الذي لا تعقيب عليه ولا مراجعة : " لا يسأل عما يفعل وهم يسألون" والضمير "هم" في الآية الكريمة شامل مطلق الشمولية لا يقبل ولا ينبغي أن يخرج عن حكمه شيء.

إننا اليوم في حاجة إلى رؤية جديدة، وبعث جديد لقيم الدين الأصيلة في مختلف المجالات خصوصا في المجال السياسي الذي باتت سيئاته تأكل كل حسنات الأمة وأرصدتها في مجال القيم والإعزاز الإنساني؛ وأن نسهم بدورنا بتخليق الحياة الكونية.

فلابد أن نبني البيئة الإيجابية العامة التي يمكن أن ينشأ داخلها السلم المدني والتعايش الاجتماعي الرحيم المبني على كفالة حقوق جميع المواطنين .

إذا حكمنا الآلية الإسلامية المبنية على التبصر، والاعتبار، والحكمة، والتي تفيد في نهاية المطاف عمل العقل الإسلامي على رصد كل دواعي الخير والفضيلة وطرق إنتاجهما ، والعمل على احتواء ذلك وتجاوزه بما يعني أن تكون الأمة الإسلامية شاهدة على الناس ومؤيدة لما بين أيديهم من الخير بما يجعلها مصدقة لما بين يديها من نباهة الأمم وحيويتهم ومهيمنة على ذلك ، تماما كما أن القرآن الكريم مصدق لما بين يده من الكتاب ومهيمن عليه. واضح إذن أن الهيمنة القرآنة-كما أسلفنا- هي دعوة لتجريب انفتاح حضاري متميز يغذي الذات الإسلامية بالقيم الإيجابية ويجعلها تحتويها ثم تتجاوزها بما تبذله من جهد لتبيئة ذلك وتنـــزيله على واقع المسلمين في حلل فيها يسر الشريعة وعدالة الرب الرحيم.

وفي الخلاصة فإن بعض الجوانب الإيجابية في السياسة والتدبير كما هي في الدول المتقدمة، هدية معروضة على المسلمين لاحتوائها وتجاوزها بما يبذلونه ويضيفونه من حسنات أخرى. سياسة تجعل الحاكم "مسؤولا"- أي يقع عليه السؤال والمحاسبة -لا يمكن إلا أن تكون إسلامية كما بيناه.

والسؤال هو وسيلة حضارية لحماية الأموال العامة والحقوق العامة، وبعث التنافسية والجدية في مناشط التدبير، وطريقة لتنخيل الإرادات الصادقة التي لا تخشى السؤال لأنها تملك الجواب ، بمعنى أنها أصلا لا تبيت نية أكل أموال الناس واستضعافهم بالباطل. وهذا هو أول شروط العدالة الاجتماعية. وبهذا يستتب الرضا والتساكن والسلام داخل المجتمع.

ولعل الآليات المعتمدة في البلاد المتقدمة توفر قدرا كبيرا من هذه الاحتياطات. كما أنها بلغت حدا من التوفيق في التدبير العام الذي يحمي الحقوق ويرفع من قيمة الإنسان. من خلال حفظ حقوق أساسية للإنسان أصبحت إنجازا متحققا في التعليم والصحة والشغل والقضاء والحماية الاجتماعية —وهذه جوانب مشرقة لا يستنكف النورسي في أن يصف أوربا بسببها بالمؤمنة-...والمؤسف أن تبقى الدعاوى الحقوقية في البلاد الإسلامية —في واقعنا الراهن- شعارات غير قابلة للإنجاز والتحقق بسبب ما يكتنفها من تعقيد وتباين في المواقف، وكثرة الفرقاء وغياب الإرادة، وأحيانا بسبب تعقيد المدونة

الفقهية، ما بين محرم ومحلل ومبيح ومكره !! فأصبحت حقوق المسلمين شعارات مطوية في كتب طائفة من الأصولين، تنتظر من يجعلها حقائق تمشي على الأرض.

وهذه القيم الأصولية تفطنت إلى جوهر الشريعة الإسلامية، بشكل يدعو إلى الإعجاب من خلال نظم الكليات الدينية ومن خلال قواعد أخرى تنبئ عن حيوية العقل المسلم، لولا أن حطمته السياسة والاختلاف. وهي أدواء ما فتئ النورسي يحمل عليها بقوة ويدعو إلى تجاوزها، وترميم البيت الداخلي، والتهيؤ لنشر أنوار الرسالة الإسلامية عوض تعطيلها بالصراعات البينية المدمرة:

"إن تباين الأفكار هذا قد هزّ أساس الأخلاق الإسلامية وفرّق اتحاد الأمة، وأخّرنا عن ركب الحضارة، لأن أحدهم يكفّر الآخر ويضلله، بينما الآخر يعدّ الأول جاهلاً لا يوثق به. وهكذا ساد الإفراط والتفريط. وعلاج هذا الداء هو الصلح النابع من توحيد الأفكار، وربط العلاقات ووصلها حتى يوصل إلى نقطة الاعتدال، فيتصافح الجميع، ويتفقوا جميعاً لئلا يُخلّوا بنظام الرقي" [13]

ويعمد النورسي إلى استقراء دائم للبينات القرآنية مستخلصا منها دروسا يقوم بتعديتها إلى واقع المسلمين استجابة لدعوة إلهية بضرورة الاعتبار، فقصص الأنبياء عنده ليست مجرد حكايات تقرأ، بل دروس أحكمت بابتلاءات تاريخية تدل على نتائج الفعل التاريخي الإيجابي بقيادة الأنبياء والرسل ، وهو الأمر الذي طلب من كافة المسلمين الاقتداء به بعد حسن تأمله واستخلاص الدرس المناسب منه. بل هي دعوة أمام البشرية لتلمس طريق النجاة خارج الزهو القاروني، والغطرسة الفرعونية، في الأوبة النبوية ليونس عليه السلام، والذي بخفض الجناح لرب العالمين تجاوز كل العقبات ونجا من جميع الظلمات.

والحقيقة التي لا يخطئها النورسي هي أن المسؤوليات تكليفات شرعية، يحاسب عليها في الدنيا بأن تظهر نتائجها الخيرة تقدما وازدهارا ونتائجها السيئة تدهورا ودمارا. ويحاسب عليها في الآخرة بجنة النعيم أو بدار جحيم مقيم. ولذلك فالمسؤوليات ليست ترفا لإصابة قدر من الكبرياء والاستعلاء على الناس وحكمهم جورا كالحيوانات

المسلوبة الإرادة، بل يقين لتثبيت دعائم العدل وإقامة ميزان الله فيهم الذي أعطى كل شيء حقه. لهذا يصيح النورسي بين الفينة والأخرى:

"أيها الحكام! ويا من تسلمتم أمر البلاد! إن كنتم تريدون أن تسود العدالة أنحاء مملكتكم، فاقتدوا بسليمان – عليه السلام – واسعَوا مثله إلى مشاهدة ما يجري في الأرض كافة، ومعرفة ما يحدث في جميع أرجائها" [14]

والخطاب النوري مهما بدا موغلا في تدقيق الوعي بواقع الانحطاط في العالم الإسلامي، لا يغفل عن قراءة جادة لقيم ، ما تزال في حالة كمون، ثاوية في الخطاب القرآني. وهي ثوابت تشتغل، كلما توفرت الإرادة الجادة لتفعيلها.

إن النورسي وهو يتحرك في هذه المساحة الكبيرة للوعي الاستراتيجي ، مشدود إلى تأسيس قوانينه الافتراضية على كل آليات الارتقاء الحضاري الجاهزة والموجودة في حالة كمون. وهي تحتاج إلى إيمان ووعي حضاري مسلح بفهم السننية الكونية لتخرج من كمون القوة إلى واقع الفعل. لهذا فكل المؤشرات حسب النورسي تثبت قوة الخطاب القرآني وصلاحية قيمه الكلية لنصب ميزان عدالة كوني يستمتع بإنصافه المسلمون وغيرهم. وبذلك فهو وحده الميزان القادر على الاستجابة لتطلعات البشرية بل وغيرها من الكائنات الكونية:

"وبشر المسلمين جميعاً بل الإنسانية قاطبة بأن الإسلام سيظهر على الأرض كافة مبينـــاً أن اعظم رقي مادي ومعنوي سيحققه الإسلام، وستنجلى الحضارة الإسلامية بأبهى مظهرها وستطهّر الأرض من اللوثات، كل ذلك مقروناً بدلائل عقلية رصينة..." [15]

4-2 العدالة الاجتماعية

إن ما أنجزته هذه المدنية الحاضرة من خوارق – في ساحة العلم – نِعمٌ ربانية تستدعي شكراً خالصاً من الإنسان على ما أُنعم عليه، وتقتضي منه كذلك استخداماً ملائماً لها لفائدة البشرية ومنفعتهم. بيد أننا نرى الآن خلاف ذلك؛ اذ تقود تلك الخوارق قسماً من الناس – الذين لهم أهمية بالغة في الحياة – وتوردهم موارد الكسل والسفاهة... إذ إنها تذكّي نار الأهواء النفسانية، وتثير كوامن النـــزعات الشهوانية

فتُقعِد الإنسان عن الكدّ والسعي وتثنيه عن الشوق الى العمل، وتسوقه بعدم القناعة وعدم الاقتصاد إلى السفاهة والإسراف والظلم وارتكاب المحرمات"[16]

إن قوة الفكر النوري هي في هذه القدرة الفائقة على الربط العضوي بين عناصر الظاهرة الاجتماعية، والوعي بحركة مختلف العناصر لتفعيل البنية الاختلالية الكبرى في المنظومة الحضارية. فكل عنصر مهما بدا مستقلا بذاته إلا انه في نهاية المطاف متعالق مع غير مؤثر فيه ومتأثر به. ولعل التسلح بمثل هذا الوعي سيولد قدرا كبيرا من الحزم في تدبير مختلف العناصر المسؤولة عن النهوض أو التردي الاجتماعي، بما في ذلك الأخلاق الفردية والأخلاق العامة والحركة الاقتصادية.

لقد تنبه النورسي مبكرا إلى عناصر يمكن أن تفتن النظر الشرقي ، وهو يقارن بين مدنية غربية ناطقة–أي ما يشكل أوربا الإيجابية كما أوضحنا أعلاه– وبداوة شرقية غارقة. فيحاول البعض أن ينسب تلك الإيجابيات في الحضارة الغربية إلى عوامل التحلل من الدين مطلقا محاولا أن يدعو إلى إقامة شعائر حضارية بديلة عن شعائر الدين، بينما يرى في النكوص الحضاري الشرقي دليلا على فشل الإسلام، فيكون ذلك سببا يجعل الشرق مقبلا على الغرب لاستعارة مدنيته دون وعي أو أهلية تمييزية. وقد يسقط لأجل ذلك في انحطاط مضاعف إذا نهل من عناصر السلب الغربي وزادها على ما في أوطانه من سلب سابق. فيصنع الانحطاط القادم والانحطاط القائم وضعية بئيسة أبلغ ما يكون البؤس.

بينما يحمل القرآن كل أنوية الانطلاق وعوامل الدفع الحضاري اللازمين لتحقيق الرقي الفعلي والتقدم المعقول. والشيء الذي صح أوله يصح آخره. أفليس القرآن أخرج مجموعة من البدو الغارقين في صحراء منقطعة، إلى أمة تبني أعز حضارة وأكملها:

"إن أثر القرآن في كل هذا التقدم (الحضارى الاسلامي) لا ينكر، فالقرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكنهم من إنشاء إمبراطورية فاقت إمبراطورية الإسكندر الكبير، والإمبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانا وحضارة. . "[17]

لهذا كان النورسي في جزء كبير من مشروعه النوري معنيا بمكافحة الشبهات وإسقاطها ، قبل الخلوص إلى ملكوت الإيمان ومملكة الإسلام المنسجمة المتناغمة مع كل

درات الكون والمتجاوبة مع كل أصوات الحكمة المنتشرة في العالم ، وسبب ذلك عنده أن الحكيم الذي أبدع الكون بهذا القدر من الجمال والجلال هو نفسه الذي أمر بإقامة شريعته الغراء؛ وهي كلمة فيها أيضا أصناف من الجمال والجلال الاجتماعيين القادرين على جعل الناس يسلمون الوجهة إلى بارئهم الحكيم مطمئنين إلى جمال المسلك إليه وجلال الإقبال عليه.

"فالسلامة والأمان إذن لا وجود لهما إلاّ في الإسلام والإيمان" [18]

لأن الإسلام وهو يقيم ميزان العدالة العام ينصبه وفق إرادة إلهية لكي يضفي على الحياة الاجتماعية بهاء شاملا ويطهرها من القبح المعنوي، انسجاما مع حكمة قضت بالعدل في كل شيء في الكون :

"وترى العدالة المطلقة تضع كل عضو من الكائن الحي في موضعه اللائق به، وتنسقه بموازين دقيقة حساسة – ابتداء من ميكروب صغير الى كركدن ضخم، ومن نحل ضعيف إلى نسر مهيب، ومن زهرة لطيفة إلى ربيع زاهٍ بملايين من الأزهار. . وتراها تمنح كل عضو تناسقا لا عبث فيه، وموازنة لا نقص فيها، وانتظاماً لا ترى فيه إلا الإبداع، كل ذلك ضمن جمال زاهر وحسن باهر حتى تغدو المخلوقات نماذج مجسمة للإبداع والإتقان والجمال. . فضلا عن أنها تهب لكل ذي حياة حق الحياة؛ فتيسر له سبل الحياة، وتنصب له موازين عدالة فائقة؛ فجزاء الحسنة حسنة مثلها، وجزاء السيئة سيـــئة مثلها. . وفي الوقت نفسه تُشعر قوتها وسرمديتها، بما تنـــزل من عذاب مدمر على الطغاة والظالمين منذ عهد آدم عليه السلام. فكما لا تكون الشمس دون نهار، فتلك الحكمة الأزلية، وتلك العدالة السرمدية لن تتحققا تحققاً كلياً إلا بحياة أخرى خالدة لذا لن ترضيا أبدا ولن تساعدا بحال من الأحوال على نهاية لا عدالة فيها ولا حكمة ولا إحقاق حق، تلك هي الموت الذي لا بعث بعده، والذي يتساوى فيه الظالمون العتاة مع المظلومين البائسين ! فلابد إذن أن تكون وراءه حياة أخرى خالدة كي تستكمل الحكمة والعدالة حقيقتهما"[19]

ولعل الآفات الاجتماعية المنكرة ، والكثيرة بسبب انتشار ثقافة الغرب...لوثت وجه الأرض بكل أنوا ع الفساد والقبح ...وصارت أشبه شيء بالدماميل والتقرحات في وجه البشرية، مما شوه وجه هذه الحضارة الجميلة أصلا وذهب بمحاسنها الأخرى.

يتضح ذلك في مسألة المرأة وهي بسبيل أن تكون قضية معولمة، فصناع القرار يجتهدون في أن يحولوا المنتظمات الدولية-، وهم تحكموا في مقاليدها، ويصوغون توجهاتها على نحو منسجم مع رؤيتهم الخاصة للكون والإنسان- إلى مجالات للتشريع الكوني على نحو يلزم كل دول العالم بما يصدرون من قرارات . كما هو الشأن مع مؤتمر بيكين...وغيره من مؤتمرات وندوات دولية تتهيأ لابتلاع القيم الحضارية للعالمين وطيها تحت جناح المادية الاستهلاكية.

ولعل هذه التشريعات في حاجة ماسة إلى أن تلقي السمع إلى النورسي وهو يحاججه بهذا الخطاب الصريح :

"أتحسبون أن "مهمة حياتكم" محصورة في تلبية متطلبات النفس الأمارة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعا لشهوة البطن والفرج؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما أودع فيكم من لطائف معنوية رقيقة، وآلات وأعضاء حساسة، وجوارح وأجهزة بديعة، ومشاعر وحواس متجسسة، إنما هي لمجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية؟ حاشَ وكلا!!"[20]

إن الربط بين القيم الاجتماعية والسلام مسألة في غاية الدقة والأهمية، ذلك لأن هذا الكم الهائل من الأخلاق السفلية التي تحتفل بكل ما هو تحتي ، تشد الإنسان إلى الأرض مثل أحط الجمادات التي من خصائصها الطبيعية الانجذاب إلى الأسفل، بينما يجدر بإنسان وهب الحرية أن يثبت كرامته عليها بتساميه ونشدان الأعلى، وأن لا يخضع لإرغامات التسفل.

وإن مجتمعا تعيث فيه الأفكار السفلية ، سرعان ما يصبح عشا للزنابير الآدمية، التي تملأ سطح الأرض بأنواع المخدرات والخطايا والجرائم والجنايات...والخطر كله يكمن في أن تتسع دائرة الشر فتشمل القسط الكبير من الذين نشئوا في هذا الدرك الاجتماعي، فيكون منهم : المسؤول الكبير والبرلماني والوزير ...ومن بيده أوامر الزر النووي؟

لهذا ينبغي على البشرية أن تحمل هذا الوعيد الإلهي محمل الجد :

(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) الآية

ثم عليهم أن يسعوا إلى تنشئة اجتماعية راشدة ، تدفع هذا القدر من المجون والشرود عن الأخلاق الذي طفح على سطح سفينتا الأرضية المتحركة والتي تسبح بنا هذا الملكوت في اتجاه الآخرة.

أليس النورسي محقا إذن عندما يعتبر المعادلة الاجتماعية ، حاسمة في بناء الاستقرار الاجتماعي والأمن المحلي والسلم الكوني .

"فاعلم من هذا أن "العدالة والاقتصاد والطهر" التي هي من حقائق القرآن ودساتير الإسلام، ما أشدها إيغالا في أعماق الحياة الاجتماعية، وما اشدها عراقة واصالة. وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط أحكام القرآن بالكون، وكيف أنها مدّت جذوراً عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعرىً وثيقة لا انفصام لها. ثم افهم منها أن إفساد تلك الحقائق ممتنعٌ كامتناع إفساد نظام الكون والإخلال به وتشويه صورته"[21]

4-3 العدالة الاقتصادية :

إذا كان الاقتصاد في عرف الاشتراكية هو ما تراكمه الدولة من إنتاج ووسائل

وإذا كان في ميزان الرأسمالية هو ما يحوزه الفرد من أموال وممتلكات

فهو في ميزان الإسلام –حسب النورسي- توزيع خيرات المائدة الرحمانية على الأنام جميعهم مع الشكر لله وتجنب الإسراف. فالاقتصاد في النهاية خارج الحذلقات استثمار نعم الله مع توقيرها:

"أجل! إن الاقتصاد كما هو شكر معنوي، فهو توقير للرحمة الإلهية الكامنة في النعم والإحسان. . وهو سبب حاسم للبركة والاستكثار. . وهو مدار صحة الجسد كالحمية. . وهو سبيل إلى العزة بالابتعاد عن ذلّ الاستجداء المعنوي. . وهو وسيلة قوية لإحساس ما في النعم والآلاء من لذة. . وهو سبب متين لتذوق اللذائذ المخبأة في ثنايا نعمٍ تبدو غير لذيذة. . ولكون الإسراف يخالف الحِكَم المذكورة آنفاً باتت عواقبه وخيمةً"[22]

ويسقط النورسي المعادلة الاقتصادية على المعادلة الأخلاقية، فيتحصل له بذلك وعي متكامل عميق يتجاوز السطحية المادية الموسومة بالنفعية الآنية والأنانية؛ ليؤسس الحاجة الاقتصادية على مطالب التخليق التي باتت شعار الاقتصاديين أنفسهم اليوم، وليقيم ميزان العدالة الاجتماعية بين حاجات الإنسانية كلها راهنا، وحاجة الأجيال المتعاقبة الذين ستستضيفهم المائدة الرحمانية كما استضافت الذين من قبلهم.

فالاقتصاد حسب النورسي يعفي من الاستجداء ويبقي مدخرات مانعة من النكوص . . فهو اعتدال في التصرف وحكمة في التصريف . وقد وجدت هذه الدعوة صدى في كتابات لاحقة لمفكر آخر هو مالك بن نبي، فخصص لها كتابه الموسوم ب"المسلم في عالم الاقتصاد".

هذا المطلب الاقتصادي المحتاج إلى مدخل أخلاقي حاسم يمكن تجليته على النحو الآتي:

الواجب +الحق = إنتاج + استهلاك =0

هذه المعادلة يمكن تمديدها ورصد كل الاحتمالات المتولدة عن تشغيل كافة أوجهها:

الواجب أكبر من الحق = الإنتاج أكثر من الاستهلاك ⟸ اقتصاد مزدهر

الواجب يساوي الحـــق = الإنتاج يساوي الاستهلاك ⟸ اقتصاد راكد

الواجب أصغر من الحق = الإنتاج أقل من الاستهلاك ⟸ اقتصاد متدهور

فكلما كثر المستهلكون وقل المنتجون كلما قلت المنتوجات وضعفت المدخرات القومية، وبددت الثروات الوطنية. لهذا كان معنى الاقتصاد متسوايا من جهة الدلالتين اللغوية والاصطلاحية في تعبير النورسي، بما يفيد إحسان القيام بواجب الإنتاج والاعتدال في الاستفادة من حق الاستهلاك، ليكون حاصل الفرق بين الحدين ما تنمو به الأمة وتزداد به قوة :

" إذ بسبب الابتعاد عن الاقتصاد، يكثر المستهلكون، ويقل المستحصلون، ويبدأ الجميع يشدون نظرهم إلى باب الحكومة، وحينها تنتكس وتتناقص الصناعة والتجارة

والزراعة التي هي محور الحياة الاجتماعية ومدارها، وينهار المجتمع ويتدنى بدوره ويغدو فقيراً معدماً"[23]

والأصل الأصيل عند النورسي، وما ينبغي أن يكون شرطا للسلام العالمي، من خلال تحقيق هذا القسط الضروري من العدالة الاجتماعية والأمن الغدائي، هو أن الله لم يخلق أرزاقا أقل من العباد بل خلق أرزاقا تزيد على الحاجيات ولكن تحصيلها المجحف هو الذي يؤدي إلى استئثار فئة غاصبة، تبدد ليس فقط ما تنتج ولكن ما ينتجه جم غفير ، من المحرومين المتجنى على حقوقهم .

هذا الدرس الاقتصادي يراه النورسي مبسوطا في آيات القرآن ودلائل الحكمة القائمة على العدل في كل شيء والتي تستلزم تعميم مقتضياتها على كافة الناس، ولكن البشرية لما عميت عنه و لم تفهم أهمية الاقتصاد القائم على توقير النعم وشكر المنعم، واستهترت بالخيرات وقع الظلم بين الفئات والمجتمعات، فعادت لتكتشف نفس الدرس مبسوطا هذه المرة في وقائع التاريخ وفي لطمات العقاب كما يسميها النورسي:

"نعم لقد أثبت الزمان فعلاً هذه الكرامة الاقتصادية وذلك عندما شهدت البشرية بعد عامين الحرب العالمية الثانية. . . تلك الحرب التي بثت الجوع والتخريب وضروب الإسراف المقيت في كل أنحاء العالم مما أرغم البشرية على التشبث بالاقتصاد والالتفاف حوله عنوةً" [24]

5 دليل الحكمة ، الميزان الشامل :

نقطة الارتكاز الأساسية في ميزان الله ، حسب النورسي، هي الحق. الحق الذي قامت به السموات والأراضين، والحق الذي هو منهج الحياة العامة ومطلب جميع الشرائع السماوية. فلهذا كانت الحجة للإقناع بهذا الحق هي منطق الشريعة وليس الغلبة القائمة على الإكراه والعنوة والقوة. وذلك هو السبيل الذي سيحمل الناس على حب السلام و جعله خيارا كونيا ، ليس لأنهم أكرهوا على تبني معاييره بل لأنهم اقتنعوا بجدواه ومغزاه :

" الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائماً: العدالة والتوازن. ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء"[25]

إن هذا الميزان الإلهي يحكم بالحق كل شيء ، ولا يخرج عن تدبيره أي شيء، ولا يحابي جهة على حساب أخرى سواء كانت أضخم المجرات أو أبسط الذرات:

"النجوم والشموس التي هي أكبر من الأرض بألف مرة، يوزن كل منها بذلك الميزان ويكال بمكياله، فتعطى لتلك المخلوقات كل ما يلزمها من حاجيات من غير نقص وقصور حتى تتساوى أمام ذلك الميزان، ميزان العدالة، تلك المخلوقات الصغيرة جداً مع تلك المصنوعات الخارقة في الضخامة"[26]

إن المراد الأصلي للشريعة الغراء هو أن تنصب على الأرض موازين القسط، حتى تكون البشرية بكل أجناسها وأسمائها ومستوياتها، سواء أمام ميزان العدالة. فالملل معني بأن تصان كرامته وأن تحفظ حقوقه، ولا يجوز العدوان على الفرد الواحد كيفما كان نوعه –إلا بالحق الذي يقرره ميزان الحق–وكل عدوان أو تجن عليه هو عدوان وتجن على النوع البشري كله .

وبذلك تكون النواميس الاجتماعية مما ثلة للنواميس الكونية في مطلب الحق والعدالة، وقد تكفل الله بالنواميس الكونية إذ لا قبل للناس بتدبير شؤونها ، وأمرهم بتدبير الشؤون الاجتماعية بميزان بينه لهم وأمرهم بالالتزام بمقتضياته وذلك مناط تكليفهم وموجب محاسبتهم. لهذا كانت الآخرة في رأي النورسي حاجة ماسة ومطلب ضروري حتى تسلم الحقوق الدنيوية وتنتصب العدالة الاجتماعية.

إن التعبير بالميزان في القرآن الكريم وذكر السموات ولأرض معه دليل على كليته وشموليته، وذكره أكثر من مرة في الحيز الواحد من القرآن الكريم دليل على ضرورته وأهميته:

"وإن ذكر الميزان أربع مرات في "سورة الرحمن" إشارة إلى أربعة أنواع من الموازين في أربع مراتب وبيان لأهمية الميزان البالغة ولقيمته العظمى في الكون. وذلك في قوله تعالى: (والسماء رفَعها وَوَضَع الميزان_ الاَّ تَطْغَوا في الميزان_ وَاقِيمُوا الوزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ) (الرحمن: 7- 9).

نعم، فكما لا إسراف في شئ، فلا ظلم كذلك ظلماً حقيقياً في شئ، ولا بخسَ في الميزان قط، بل إن التطهير والطهر الصادر من التجلي الأعظم لاسم "القدوس" يعرض

الموجودات بأبهى صورتها وأبدع زينتها، فلا ترى ثمة قذارة في موجود، ولا تجد قبحاً أصيلا في شئ ما لم تمسّه يد البشر الوسخة"[27]

إن الإسلام وفق المقاييس النورية لا يمكن إلا أن يكون سلاما بالطبيعة، وأمنا يالفطرة ما دام دينا أعد لإعمار الأرض بالخير، وإقامة ميزان الحق، وجعل ذلك مدارا لتكليف العباد، ثم أحيط ذلك التكليف بكل ضمانت العدالة الأخروية الصارمة. وجعلت كل أعمال البر عبادات في رحاب مسجد كبير تتراحب قبلته بكل أفعال الخير التي تسلم وجهها لله ويكون غايتها النفع العام.

من أجل ذلك كان شأن المسلمين –وهو ما ينبغي أن يكون دائما– أنهم غارقون في عبادتهم بهذا المسجد الكبير المسمى دار الدنيا، ولذلك جازت لهم الصلاة في كل بقعة من بقاعه، حتى يشيعوا السلام أينما كانوا ؛ احتراما لقدسية الأرض التي يعبدون الله عليها. وهذا حسب النورسي هو الذي أهل الرعيل الأول ليفتحوا للبشرية عهدها الجديد مع الخيرية الكبرى:

"وهكذا بمثل هذه الوظائف المتنوعة للعبودية، أدّوا فريضة عمرهم ومهمة حياتهم في هذا المسجد الأكبر المسمى بدار الدنيا، حتى اتخذوا صورة أحسن تقويم، واعتلوا مرتبةً تفوق جميع المخلوقات قاطبة، إذ أصبحوا خلفاء أمناء في الأرض، بما أودع فيهم من الإيمان والأمانة"[28]

والحاجة اليوم أمس لإشاعة هذه المفاهيم العادلة بين البشرية، خصوصا ونحن نجد تطلعات كونية غير مسبوقة لإعمار العالم بمفاهيم بديلة، وإقامة ميزان بشري توزن به أعمال الحياة والشعوب قاطبة. لكنه ميزان قائم على القوة بدل الحق وعلى المنفعة بدل الفضيلة، وهذا سبب تناقضه مع الموازين الإسلامية التي :

" نقطة استنادها هي الحق بدلاً من القوة. والحق من شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المحبة والتجاذب"[29]

لقد تنبه النورسي بحيوية بالغة إلى كل التطلعات العالمية للسيطرة على العالم، وقرأ مناهج تلك السيطرة وأنظمة التحكم التي تنشد تلك الدول الطاغية بسطها. فلم يكن يلتفت إلى شعاراتها بل يقرأ وقائعها ويفكك عناصرها الداخلية ليثبت له أن منافسة هذه

الشرائع الظالمة للشريعة العادلة هو عدوان مزدوج ، من جهة على من تعتبرهم هذه الدول خصوما، ومن جهة ثانية بمن تمثلهم من شعوب ودول. بل كان النورسي يرى في أنوية التسلط المسنود بمنطق القوة والحجاج الإعلامي ومغالطة الضمير، نوعا من الحيف ستستن به كل قوة غاشمة آنست من نفسها القدرة على التطاول على حقوق الآخرين، وستصبح شريعة الهيمنة والعدوان طموحا تتنافس في تحقيقه كل دولة آنست من نفسها سعة في النفوذ وبسطة في القوة. قال النورسي ذلك وهو يرصد العدوان البريطاني في الهند، وصدقت نبوءته بعدوان أمريكا الأخير :

"نعم ! لقد أظهر الزمان أن دولة تسمى داعية الحرية، قد كبّلت بثلاثمائة من موظفيها المستبدين ثلاثمائة مليوناً من الهنود، منذ ثلاثمائة سنة، وسيطرت عليهم كأنهم ثلاثمائة رجل لا غير، حتى لم تتركهم يحركون ساكناً. ونفذت قانونها الجائر عليهم بأقسى صورة من صور الظلم، آخذة آلاف الأبرياء بجريرة مجرم واحد. أعطت لقانونها الجائر هذا اسم العدالة والانضباط. فخدعت العالم ودفعته إلى نار الظلم. هذه الدولة غدت مقتدى ذلك الاستبداد القادم في المستقبل" [30]

وسيتواصل استقراء النورسي للوقائع والأحداث، مسترشدا بالآليات الاعتبارية التي حض عليها القرآن الكريم، فيمنح لنظره بعدا استقباليا يستشرف اللاحق من خلال السابق، ويبني نتائج ما سيكون على ضوء ما هو كائن. فيخرج له من تأمله ذاك وعي استراتيجي مفعم بروح المستقبليات . حتى إن الباحث ليعجب من كلام النورسي ذاك وهو يطفح بالراهنية:

"إن ضلال البشرية وعنادها النمرودي وغرورها الفرعوني، تضخّم وانتفش حتى بلغ السماء ومسّ حكمة الخلق، وأنـــزل من السموات العلا ما يشبه الطوفان والطاعون والمصائب والبلايا. . تلك هي الحرب العالمية الحاضرة. إذ أنـــزل الله سبحانه لطمة قوية على النصارى بل على البشرية قاطبة. لأن أحد أسبابها التي يشترك فيها الناس كلهم هو الضلال الناشئ من الفكر المادي، والحرية الحيوانية، وتحكّم الهوى"[31]

ثم وكأنما يتحدث عن شعارات الغطرسة المعاصرة، وهي تقلب الحقائق وتلبس المفاهيم دلالات نقيضة:

"سيكون زمان يُخفي الضدُّ ضدَّهُ، وإذا باللفظ ضد المعنى في لغة السياسة. وإذا بالظلم [1]يلبس قلنسوة العدالة، وإذا بالخيانة ترتدي رداء الحمية بثمن زهيد. ويُطلق اسم البغي على الجهاد في سبيل الله ويسمّى الأسر الحيواني والاستبداد الشيطاني حرية"[32]

أليس هذا حديثا عن سجن "أبو غريب" ؟

أليس الاستبداد الشيطاني فعلا هو الذي يسوق اليوم للبشرية على أنه حرية ؟

أليست الاستهانة بحق الحياة دليلا على إفلاس الموازين الغربية التي تريد بسط عدالتها بديلا عن ميزان رب العالمين؟

"إن العدالة التي لا مساواة فيها ليست عدالة أصلا. "[33]

6 العدل أصل الدين وعنوان العقيدة :

لو تدرجنا إذن بمقتضيات العدالة في الإسلام لوجدناها تناسب مختلف المقامات الإنسانية، فردية كانت أو جماعية، محلية أو دولية. وهذه الخصائص مفروضة على المسلمين شرعا و هم يتعبدون ربهم بها ويتقربون إليه بواسطتها. فليس أمامهم –إذن– إلا خيار واحد هو إقامة العدل في أنفسهم وإحقاقه مع غيرهم . وبذلك يكتسبون أهلية الشهود الحضاري على الناس لأنهم يجرون فيهم بمقتضى مراد رب الناس.

فإذا نظرنا في الميزان الغربي سنجده عادلا محليا وظالما عالميا، وبذلك تكون البشرية كلها خاسرة بغياب التشريع الإسلامي وشغور محله لفائدة التشريع الغربي.

ولو حاولنا أن نسقط الفكرة الغربية على مربع دلالي يكشف لنا ، مستوى التقدير الغربي لكل ما ليس غربيا لاتضح لنا أن التمركز حول الذات المحلية ومحاولة استتباع العالم لحاجياتها، ليس فقط خروجا عن حدود الإنصاف بل تأصيل للاعدالة، وتمكين للكيل بمكيالين:مكيال الإنصاف لكل ماهو غربي ، ومكيال الإجحاف لكل ما ليس غربيا –خصوصا ماكان إسلاميا، لأن العصبية على الإسلام نابعة من الإحساس برسالته العالمية ومنافسته للتمدد الكوني للرسالة الغربية المنقوصة.

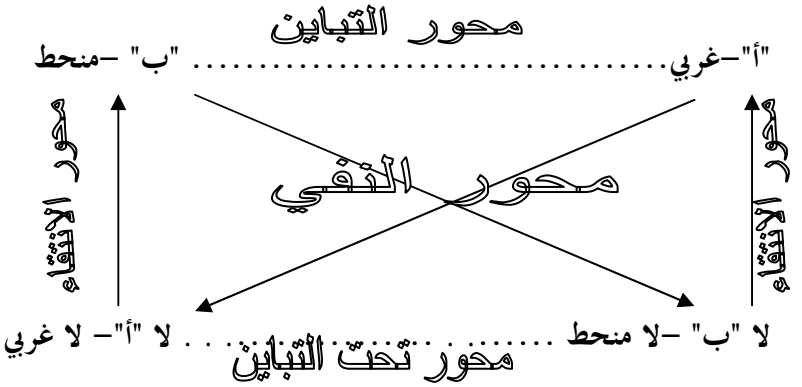

لا يخفى أن هذا النموذج التمثيلي يعكس إصرارا على حصر الاختيار وتضييق الأفق بنوع من العصبية لا يبررها المنطق. فإذا كان محور النفي صحيحا :(أ.... . لا أ =غربي.... لا غربي)؛ فإن محور الانتقاء يعكس شوفينية عنصرية لا يمكن أن تحوز صفة الأهلية للشهود على الناس، لأنها قائمة على التنقيص من أقدارهم والحط من قيمتهم . وإلا فإن الانتقال من عنصر تحت التباين: (لا أ /لا غربي إلى عنصر التباين ب/ منحط) غير مبرر، ذلك أن " لا أ " قد تكون "ب" أو "ج" أو "س" ...أو "ن". فليس كل ما لا يكون غربيا يكون منحطا، وليس كل ما لا يكون منحطا يكون غربيا. ولعل هذه العصبية الظاهرة انتقلت من الصف الثالث والثاني في المجتمعات الغربية إلى الصف الأول حيث لا يمل كبار المسؤولين من ترديد :"نحن أمة الأحرار، ومعسكر الأحرار... " بما يفيد :"وغيرنا من ثقافات وهويات معسكر العبيد وأمة العبيد"

فإذا ثبتت الفكرة الرئيسة التي يريد النورسي ترسيخها في ذهن العالمين، وهي أن القيم الإسلامية لازمة للحياة كما تلزم القيم الطبيعية سيرورة الكون، لزم أن نعرف حاجتنا في العالم الإسلامي إلى استعادة الوعي بمسؤوليتنا التاريخية تجاه العالمين.

مما يستوجب تأهيل السياسة الداخلية في العالم الإسلامي ورفع الحيف والاستعباد، وتمكين المسلم من الإعزاز المطلوب . لأن في السياسة الإسلامية كما تمارسها الدول الإسلامية اليوم قدر كبير من الاستضعاف، يعطي انطباعا خاطئا أن الأمة الإسلامية

فعلا لا تعيش إلا مع الاستبداد والقهر. وهو أمر عمد النورسي إلى كل الوسائل الحجاجية الممكنة للبرهنة على بطلانه.

ولعل هذا يتحقق، بتفعيل المنظومة الأصولية، وإضافة عنصر سادس ليكون أصلا من أصول الدين الكبرى التي جاءت الشريعة لإقامتها وهو "العدل". ثم جعله على رأس الأصول كلها لأن الذي نخلص إليه عبر هذه الرحلة الموجزة في فكر النورسي أن المكونات الأخرى كلها مشروطة به، وتكون بذلك هذه الأصول الستة الكبرى هي :

1-حفظ العدل
2-حفظ الدين
3-حفظ العقل
4-حفظ النفس
5-حفظ المال
6-حفظ العرض

وواضح مما سبق أن النورسي يعتبر العدالة دليل على الحكمة الإلهية، وغيابها معناه العبث بهذه الحكمة وإخلال بموازينها الشبيه بالإخلال بموازين الكون...مما ينجم عنه باستعمال القياس الافتراضي :

تغييب العدالة = غياب السلام

اضطراب الكون = استحالة الحياة

فليس عبثا جعل النورسي العدل عقيدة كبرى لا يصح دين بدونها، كما تبين ذلك هذه التسبيحة الدالة:

"جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ شَأنُهُ الله أكبَرُ منْ كُلِّ شَيءٍ قُدْرَةً وَعلمَاً، إذْ هُوَ العَادلُ الحَكيمُ القَادرُ العَليمُ الوَاحدُ الاَحَدُ السُّلطَانُ الاَزَلِيُّ الَّذي هذه العَوَالمُ كُلُّهَا في تَصَرُّف قَبْضَتَيْ نظامه وَميزَانه وَتَنْظيمه وَتَوزينه وَعَدله وَحكمَتَه وَعلمه وَقُدرَته، وَمَظهَرُ سرِّ وَاحدِيَّته وَأحَديَّته بالحَدْسِ الشُّهُودِيِّ بَل بالمُشَاهَدَة. إذ لا خَارِجَ في الكَونِ منْ دَائرَةِ النِّظَامِ وَالميزَانِ وَالتَّنظيمِ وَالتَّوزينِ؛ وَهُمَا بابَانِ منَ "الإمامِ المُبينِ

وَالكتَاب الْمُبين". وَهُما عُنوَانان لعلمِ العَليمِ الحَكيمِ وَأمْرِه وَقُدْرَة العَزيزِ الرَّحيمِ وَإرادَته. فَذلكَ النِّظامُ مَعَ ذلكَ المِيزَان، في ذلكَ الكتَاب مَعَ ذلكَ الامامِ بُرهَانان نَيِّران لَمَنْ لَهُ في رَأسه إذعَانٌ، وفي وَجهِه العَينَان، أنْ لا شَيءَ منَ الاَشياءِ في الكَونِ وَالزَّمَانِ يَخْرُجُ منْ قَبضَةِ تَصَرُّفِ رَحمنٍ، وَتَنْظيمِ حَنَّانٍ، وَتَزيينِ مَنَّانٍ، وَتَوزينِ دَيَّانٍ"[34]

إن إقامة العدل وإشاعة السلام طمأنينة دنيوية تسهل إقامة ضيوف الرحمن في هذا الفندق البديع ، المسمى دار الدنيا، وتمهد لهم الطريق نحو الإقامة الأبدية في دار السلام الأخرى:

"وستفهم أن ساكني هذا الفندق هم ضيوف مسافرون، وإن ربهم الكريم يدعوهم إلى دار السلام"[35]

والسلام عليكم

الهوامش

1المكتوب الخامس عشر – ص: 68

2الخطبة الشامية الأحمدية الدار البيضاء2001 ص40

3اللمعة الثلاثون – ص: 519

4الملاحق – ملحق قسطموني، ص: 203

5الكلمة الحادية عشرة – ص: 136

6اللمعة السابعة عشرة – ص: 178

7اللمعة السابعة عشرة – ص: 178

8الكلمة الثانية والثلاثون – ص: 757

9الملاحق – ملحق قسطموني، ص: 122

10صيقل الإسلام/السانحات – ص: 357

11صيقل الإسلام 357

12صيقل الإسلام 358

13صيقل الإسلام 470

14الكلمة العشرون – ص: 283

15سيرة ذاتية 115
16اللمعة الرابعة والعشرون – ص: 300
17إشارات الإعجاز – ص: 280
18الكلمة الثانية – ص: 11
19الشعاع الحادي عشر – ص: 264
20اللمعة الرابعة والعشرون – ص: 304
21اللمعة الثلاثون – ص: 526
22اللمعة التاسعة عشرة – ص: 213
23اللمعة التاسعة عشرة – ص: 222
24اللمعة الثلاثون – ص: 525
25اللوامع – ص: 855
26الشعاع الثاني – ص: 36
27اللمعة الثلاثون – ص: 526
28الكلمة الخامسة والعشرون – ص: 497
29صيقل الإسلام/السانحات – ص: 359
30صيقل الإسلام/المناظرات – ص: 382
31اللوامع – ص: 873
32اللوامع – ص: 849
33اللوامع – ص: 873
34اللمعة التاسعة والعشرون – ص: 485
35الكلمة العاشرة – ص: 78